التحذير من القنوط من رحمة الله

ونِعرف أيضا أن الإنسان في هذه الدنيا عليه أن يحتقر أعماله ولو بلغت ما بلغت، وعليه مع ذلك ألا يقنط من رجمة الله، ولا ييأسٍ من روح الله ولا يأمن من مكر الله، فإن ذلك كله من الكفر أو من العصيان، قال الله تعالى: { وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالونَ } ؛ يعني القنوط هو قطع الرجاء، يعني أن الإنسان عليه ولو عمل المعاصي أن يعلق رجاءِه بربه، وأن يثق بمغفرته ورحمته، وأن يعتميد على الله، وألا يقنط من رحمته ولا يياس من روحه. قال الله تعالى: { وَلا تَيْاسُوا مِنْ رَوْح اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } اليأس هو أيضا قطع الرجاء أي عدم الثقة بالله وبمغفرته بأن يعمل عمَّلا سَيئا ثم يصر وكأنه يقول: إنني قد عملت أعمالا لا تصل إليها مغفرة الله، فيصر عليها ولو هدد بالعذاب. ذكر لنا عن كثير من العصاة أنهم مصرون على المعاصي، وأنهم مستمرون عليها صغيرة أو كبيرة، وأنهم قد تصل بهم تلك المعاصي إلى الكفر او إلى الفسوق، إذا نصحهم الناصح وخوفهم وذكرهم يقولون: نحن من أهل العذاب نحن لا حاجة لنا في المغفرة، والعياذ بالله. نحن من أهل النار، قد اطمأنت نفوسهم إلى العذاب والعياذ بالله. إذا قيل لهم: لا تخافون من شدة العذاب؟ فيقول احدهم والعياذ بالله: إذا كانت النار فيها ألوف الألوف فانا واحدٍ منهم، أصبر كما صبروا أصبر على النار وأصبر على العذاب ولو عذبت ما عذبت، فلِست وحدي في إلنار؛ بلِ النار مليئة بأمثالي فيقطع رجاءه. هذا والعياذ بالله من الذين قنطوا من رحمة الله { وَمَِنْ يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَا الضَّالُونَ } نقول للإنسان: إن عليك أن تقبل على الله، وأن تتوب إليه، وأن تستغفر وتعلم أن ربك سبحانه { يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } ولو عملت ما عملت من السيئات، فإنك تحت مشيئة الله تعالى وتحت غفرانه. فاما كون الإنسان يصر على السيئات، ويستمر على الكفر وعلى الذنوب الكبيرة والصغيرة، ويقطع رجاءه من رحمة الله تعالى ومن مغفرته -فإن ذلك من الإقدام على عذاب الله. ومن يصبر على عذاب الله سبحانه؟ من الذي يطِيقُ الإحراق في النار؟ ۚ إذا تذكَّرنا شُدة عذاب النار كيف يصبو الإنسان علَّي ذلك؟ ُ ويقول الله تعالى: { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ َ الْقِيَامَةِ غَلَىَ وُجُوهِهِمْ } ؛ يعني في النار { عُمْيًا وَبُكُّمًا وَصُمَّّا مَأُواَهُمْ جَهَنَّمُ كُلُّمَا خَبَتْ رِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } من الذي يصبر على ذلك، أنهم يحشرون على وجوههم على هذه الصفة. يقولٍ الله تعالى: { كُلُّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا "إِنْهُمْ يحشرون على وجوههم على هذه الصفة. يقولٍ الله تعالى: { كُلُّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ } من الذي يصبر على مثل هِذا العذاب؟ لا شك أن هذا إنما يصبر عِليه المعذبون الذين يقال لهم: { فَاصْبرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } نعوذ بالله، فنقول: إنك أيها العاصي مهدد بالعذاب، وإن عذاب النار عذاب شديد. النار حرَها شديد وقِعرها بعيد، وطعام أهلها الزقِوم، وشرابهم المهلِ والصديد، وعذابهم أبدا فِي مزيد، ولباسهم القطران والحديد؛ كما أخبر الله تعالى بذلك. أخبر بأنهم يعذبون فيها، وأنهم يقولون: يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد تمزقت منا الجلود، يا مالك قد تفلجت منا الكبود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، يا مالك العدم خير من هذا الوجود. يتمنون الموت فإذا كان كذلك فكيف يقدم العاقل على هذه النار الذي هذا عذابها وهذا شدة ألمها، ولكن لما طمُّسُت الأعيِّن وطمُّستُ القلوب، وعميت الأبصار كان هؤلاء لا يبالون بالإصرار على هذه المخالفات والسيئات، ولو كان قد رتب عليها هذا العذاب الشديد.